

د. غازي حاتم

يُقصد بالثقافة العلمية تبسيط العلوم (science of Popularization) وجعلها في متناول عامة الناس من خلال المجالات المتخصصة بهذا النوع من الثقافة أو المجالات و الصحف التي تفرد زوايا لهذا المجال، أو عن طريق الإذاعة والتلفاز والمنتديات والمجموعات المهمة بهذا الموضوع. وذلك دون الاستهتار بالفكر العلمي الحقيقي والبحث العلمي الجاد الذي يكشف هذه المعلومات فتكتمل مسيرة المعرفة نتيجة إبداع وتميز بعض المختصين في مجالات العلوم كافة.

ويكثر الحديث عن الثقافة العلمية في هذه الأيام بسبب وجود فارق كبير بين معرفة المتخصص في مجال عمل محدد ومعرفة عامة الناس أو المتخصص في مجالات أخرى للاختصاص المحدد، وبالتالي قلة المعرفة العلمية والوعي العلمي لما يحدث حولنا من اكتشافات بارزة وجهل للكثير من الظواهر والإنجازات العلمية. وذلك بسبب عدم القدرة على نقل هذه المعلومات بشكل مبسط ومقبول، أو بسبب سوء التعليم وأسلوب التلقين البيغاني الذي ما زال شائعاً في العديد من دول العالم، ولإسيما في الدول النامية، أو بسبب عدم التعود على التفكير العلمي الصحيح وعلى حب الاستطلاع والمعرفة الذاتية.

□قراء متنوعون للثقافة العلمية

وبالرغم من أن عدد قراء الثقافة العلمية محدود مقارنة مع عدد قراء بعض الاختصاصات الأخرى، إلا أنه يمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أصناف:

المصنف الأول: قراء هادفون كأن يقوم بعض الجامعيين بمتابعة المقالات الخاصة بمجالات اختصاصهم، فالأطباء يقرأون المجالات الطبية والبيولوجية والصحية بشكل عام، والفيزيائيون يقرأون المجالات الفيزيائية المتنوعة المتعلقة بالذرة والمادة والأشعة وعلم الفلك.

المصنف الثاني: قراء متنوعو الثقافة كأن يقرأ الفيزيائي أو الطبيب مواداً علمية وأدبية واجتماعية في نفس الوقت. وقد يبرز في اختصاص ما غير اختصاصه الحقيقي.

المصنف الثالث: قراء غير هادفين، يقرأون ما يقع تحت أيديهم لملء الفراغ وإضاعة الوقت، في المجالات الطبية والفيزيائية والبيولوجية والمعلوماتية. بالرغم من أن استيعابهم يكون قليلاً والفائدة محدودة أيضاً.

تياران معارضان

وليس مفهوم الثقافة الشعبية أو تعميم الثقافة العلمية مفهوماً حديثاً في هذا القرن أو في أواخر القرن الماضي، بل يعود لفترة أطول حيث بدأ التداول فيه في فرنسا منذ منتصف القرن التاسع عشر، وينقسم الناس بين مؤيدين للثقافة الشعبية ومعارضين لها، فالمؤيدون يرون ضرورة تعميم الثقافة العلمية على كافة فئات الشعب وبأسهل الطرق، وهم يوتوبيون يشددون على أهمية تسهيل العلوم وتبسيطها ويركزون على القيام بذلك من قبل متخصصين، لأن الكثير من الصحفيين غير المتخصصين لا يملكون قدرة على التعبير بشكل سليم عن مواضيع علمية متخصصة، وهذا ما يجعل إمكانية تكرار الأخطاء واضحاً، وخاصة عندما يستخدمون مصطلحات علمية غير مناسبة أو اصطلاحات مترجمة عن لغة وسيطة لا يتقنوها. أما المعارضون فيرون أن الكتابة في هذا المجال هو عمل مضيع لوقت الباحثين والعلماء الذين يجب أن يقتصر جهودهم على البحث العلمي الحقيقي الهادف والساعي للمزيد من الاكتشافات البارزة التي تخدم البشرية من خلال وضع حلول للمشكلات المعلقة حتى الآن.

ويكررون القول بأن تبسيط العلوم عمل يؤدي إلى إفقار العلم ويحد من قيمته، إن تكون العلوم مقدرة من خلال فوائدها - حسب رأيهم - ولهذا يتحدثون لصالح العلوم التطبيقية المفيدة للبشر، كإنتاج مواد وأدوية طبية، أو صناعة بشر آليون (روبوتات) تنوب عن الناس الحقيقيين في الكثير من الأعمال، إلى آخر ما هنالك من الأدوات ذات النفع الواسع للناس.

تدني مستوى الثقافة العلمية في الوطن العربي

ومما تجدر الإشارة إليه أن الثقافة العلمية في الوطن العربي متدنية لأسباب كثيرة منها: ارتفاع نسبة الأمية التعليمية في مجتمعنا لحد ما، حيث يلاحظ تركيز أغلبية الناس على وسائل التثقيف العلمية السريعة كالراديو والتلفاز وإهمالهم وسائل التثقيف الأساسية في هذا الإطار كالكتب العلمية والمجلات المتخصصة، وكذلك قلة الندوات والمحاضرات المركزة على هذا الجانب مقارنة مع الجوانب الثقافية الأخرى، وجهل نسبة كبيرة من الناس بما يحتويه الإنترنت من معلومات علمية قيمة في المجالات المتنوعة وفي غالبية الملفات وبالتالي عدم الاستفادة منه في مجال التثقيف العلمي ذاتياً، كما أن هناك نقصاً في قدرة المدرسين - في الثانويات بل حتى في بعض الجامعات - على إيصال الأفكار العلمية إلى الطلاب بشكل سليم وابتعاد بعضهم عن أسلوب الحوار والنقاش المشجع على المعرفة والبحث والتعمق في تحليل المعلومات والمفاهيم، لاسيما عندما لا يجدون الوسائل المساعدة على ذلك من مخابر متطورة أو أدوات لازمة للشرح، وهكذا نلاحظ من جملة الأسباب عدم تعليم الأجيال وعبر سنين طويلة على أسلوب الاعتماد على الذات في التعليم، إذ لا يكفي أن نحشر المعلومات في عقول الطلاب بل يجب أن نحثهم على البحث عن المعلومات والأفكار الجديدة وعدم الاقتناع مباشرة بكل ما يسمعون، ولما يكفي أن نحث الطلاب على النجاح في المقررات العلمية بل الحرص على الفهم العميق لمحتوياتها ومحاولة تقريبها والاستفادة منها في الواقع الحياتي قدر الإمكان، ولعل قلة عدد منتديات الحوار في المجالات العلمية في الوطن العربي مقارنة مع عددها في الدول المتقدمة من جملة الأسباب المفضية لما ذكرناه آنفاً.

صعوبات أخرى تواجه نشر الثقافة العلمية في الوطن العربي

هذا وتواجه عملية نشر الثقافة العلمية في العالم صعوبات ليست بقليلة، إما أنها تبقى محدودة مقارنة مع الصعوبات التي تواجهها في الوطن العربي والتي نعرض بعضاً منها: قلة المجلات العلمية في الوطن العربي المتخصصة بنشر الثقافة العلمية مقارنة مع المجلات المتخصصة في مجالات أخرى، وقلة عدد الصفحات المتخصصة لهذه الثقافة في الصحف العربية مقارنة مع ما يقابلها في مجالات أخرى، قلة عدد الباحثين العرب الذين يكتبون في مجال الثقافة العلمية مقارنة مع عدد الباحثين الذين يكتبون في المجالات الأخرى، وذلك لعدة أسباب:

- منهم من يدعي أنه لا يريد إضاعة الوقت في مثل هذه المقالات.

- ومنهم من ليس له قدرة على إيصال الفكرة العلمية الأكاديمية إلى مستوى أدنى من الأكاديمي.

- ومنهم من ليس لديه أسلوب إنشائي يسمح له بإعداد مقال مناسب.

- ومنهم من لا يتابع الأخبار العلمية الحديثة وبالتالي لا يملك أفكاراً جديدة مناسبة للطرح في المجلات العلمية.

- عدم تقدير الجهات المعنية في الجامعات لمثل هذه المقالات، سواء في مجال الترقية الأكاديمية أو الإدارية.

- عدم وجود مردود مادي مناسب لمن يقوم بهذا النوع من الكتابة.

- إضافة إلى عدم وجود صيغة واضحة للتعامل بين كتاب هذا المجال مع معظم إدارات تحرير المجلات.

- عدم تمكن الكتاب من الحصول بسهولة على صورة ملونة تناسب المقالات التي يكتبونها كونهم أكاديميين - وهذا ترفضه إدارات تحرير المجلات العلمية التي تطلب باستمرار الصور الملونة المتفرقة كي تحظى المقالات بالنشر السريع، وهذا أمر منطقي لأن للصور الملونة دوراً بارزاً في فهم وتبسيط المعلومات.

- صعوبة الكتابة باللغة العربية - في بعض الأحيان - في مجالات علمية حديثة جداً، وخاصة في المواضيع التي تحتاج لمختص حقيقي في المجال المطروق ذاته، وهذا ما يلاحظ عند الإطلاع على موضوع علمي منشور في مجلات مختلفة، إذ نجد فارقاً كبيراً في القدرة على التعبير عن مصطلح علمي بين كاتب وآخر أو مترجم وآخر. وهذا يعني وجود قصور في الترجمة العلمية في وطننا العربي وفي وقتنا الحالي، في الوقت الذي يوجد تسارع هائل للاكتشافات التقنية في العالم المتقدم يشمل مجالات الحياة كافة، كما يوجد اهتمام كبير في نشر الترجمات العلمية عن اللغات الأخرى.

مجلات ومراكز علمية متخصصة بنشر الثقافة العلمية

وطالما نحن في إطار الحديث عن الثقافة العلمية، ينبغي التذكير ببعض المجلات الأجنبية والعربية التي شقت طريقها في هذا المجال المهام المتعلقة بالقسم الأكبر من الناس في العالم. ففي اللغة الإنجليزية ذكر مجلة American Scientific، وفي الفرنسية ذكر Recherche La وفي اللغة الأسبانية ذكر Interesante Muy وفي اللغة العربية ذكر مجلة التقدم العلمي ومجلة العلوم والتقنية، هذا بالإضافة إلى العديد من المجلات الثقافية العامة التي تنتشر في كل أقطابها مواضيع مركزة على نشر الثقافة العلمية كمجلة العربي، مجلة المقاتلة، مجلة الفيصل، مجلة الكويت، المجلة العربية، وإضافة إلى المجلات المتخصصة بهذا المجال، تقوم بعض الجمعيات والمؤسسات والمنتديات والمتاحف العلمية بدور هام في تبسيط العلوم في العديد من دول العالم، حيث تقدم لعامة الناس معلومات ومراجع وإرشادات علمية وتعطي منح دراسية للأطفال المهتمين، وتمنح جوائز هامة لكل من يبدي اقتراحات علمية جديدة، حيث لا يمكن لأحد أن ينكر دورها في مجال التربية العلمية وحث الأجيال على التفكير العلمي الصحيح. كما لا يمكن إهمال دور المواقع العلمية الموجودة على الإنترنت في مجال نشر الثقافة العلمية، سواء الأجنبية أو العربية، حيث لا تكفي بأن تقدم الأخبار والدراسات العلمية الجديدة والمعلومات الأساسية المفيدة، بمجرد الدخول إليها بل تزيد على ذلك بقيامها بإرسال جميع أخبارها العلمية على البريد الإلكتروني لكل من يرغب بذلك لمجرد تسجيل بريده الإلكتروني، وذلك كي تكفيه عناء البحث عن الجديد في موقعها. وليس من الصعوبة الحصول على هذه المواقع، إذ يكفي الدخول لأي محرك بحث واختيار العربية التي نتقنها ومن ثم نطلب المعلومات التي نريد الحصول عليها.

خاتمة

ومما تقدم أرى ضرورة تعميم الثقافة العلمية في الوطن العربي من قبل حاملي هذه الثقافة القادرين على إيصالها إلى عامة الناس؛ ولكن دون أن يؤثر ذلك على جوهر البحث العلمي وتقدمه، ذلك لأن تقدم البلدان يرتبط بعدد باحثيه الحقيقيين وبعدهم مقالاتهم العلمية المفيدة وليس بكثرة ما ينشرون من ثقافة علمية شعبية. هذا ويجدر أن نذكر بأن هناك باحثين أجانب بارزين كتبوا في مجال الثقافة العلمية اقتناعاً منهم بأهمية نشر هذه الثقافة على تقدم بلدانهم والإنسانية بشكل عام، وشعوراً منهم بأنهم الأقدر من غيرهم على القيام بهذا الدور ولو أدى ذلك إلى تخصيص بعض الوقت لذلك الجهد المشكور.